السلطان مراد الثالث

فترة الحكم: ١٥٧٤–١٥٩٥

السلطان العثماني الثاني عشر

الألقاب والأسماء الشعرية: مرادي

اسم الأب: سليم الثاني

اسم الأم: "نور بانو سلطان"

محل وتاريخ الميلاد: بوزْداغْ في مانسيا، ٤ يوليو/تموز سنة ١٥٤٦

العمر عند اعتلاء العرش: ٢٨ عاما

تاريخ الوفاة وسببها: توفي بتاريخ ١٦ يناير/كانون الثاني ١٥٩٥ بسبب مرض الكلى

مكان الوفاة وموقع الضريح: توفي بإسطنبول، ويقع قبره بالقرب من آياصوفيا

أبناؤه: محمد الثالث، وسليم، وبايزيد، ومصطفى، وعثمان، وجهانكير، وعبد الرحمن وعبد الله، وحسن أحمد، ويعقوب، وعليم شاه، ويوسف، وحسين، وكُوركُود، وعلي، وإسحاق، وعمر، وعلاء الدين، وداود

بناته: عائشة سلطان، وفاطمة سلطان، ومِهرِماهْ سلطان، وفخرية سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان مراد الثالث، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صوَر متخيلة لشجرة العائلة العظمى".

obeikandl

بعد الوفاة المفاجئة للسلطان سليم الثاني، تولى محمد سوكولو باشا مرة أخرى مسؤولية إعلام أحد أولياء العهد بالخبر السيئ، ودعا مراد الثالث للجلوس على العرش. وبذلك استضاف العرش العثماني مرادا آخر بعد ١٢٣ سنة ليكون السلطان العثماني الثاني عشر. ومن الغريب أن الترتيب المتعاقب الذي يشير إلى حكم السلاطين الثالث والسادس والثاني عشر هو مجموعة من الأرقام المترابطة تشير جميعها إلى السلاطين الذين حملوا اسم مراد.

كان السلطان مراد الثالث قبل اعتلائه العرش واليا على "آق شهير" وساروهان (مانيسا)، وكان أول أعماله عند اعتلائه على العرش هو ترميمه الكعبة المشرفة.

وقد جرت عادة السلاطين أن يتقلدوا -بعد الاعتلاء على العرش- السيفَ السلطاني في مسجد "أيوب"، وهو الموقع الذي توفي فيه الصحابي أبو أيوب الأنصاري ودفن فيه. ذهب مراد الثالث إلى مسجد السلطان أيوب في اليوم الثاني والعشرين من رمضان. وتقلد سيفه السلطاني تماشيا مع التقليد العثماني السلطاني وزار قبور أجداده السلاطين السابقين.

جدد مراد الثالث ولاية الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا الذي عمل من قبل في نفس منصبه تحت حكم أبيه وجده، وبالتالي أصبح محمد سوكولو باشا رجل الدولة الأول والوحيد في التاريخ العثماني الذي يمتد منصبه الإداري كصدر أعظم على مدى ثلاث فترات حكم لثلاثة سلاطين مختلفين. لقد كان دور سوكولو في الإدارة من العمق بحيث سميت فترة ولايته فيما بعد بـ"حقبة سوكولو". وقد كان له أثر طويل وعميق بشكل خاص في عهد مراد الثالث وحتى اغتياله لاحقا.

كان أول عمل سياسي لمراد الثالث في أوروبا هو تنصيب باثوري أمير ترانسيلفانيا ملكا جديدا على بولندا

زخارف رائعة للسقف المرتفع للغرفة الخاصة بالسلطان مراد الثالث، بقصر "طوب قابي".

بدلا من الملك المتوفى. وكان ذلك القرار يعني إنهاء النفوذ الروسي والهابسبورجي في المنطقة، وأصبحت مملكة بولندا تحت الوصاية العثمانية في نهاية الأمر عام ١٥٧٥. وبذلك امتدت السيطرة العثمانية وصولا إلى بحر البلطيق.

وامتدت الحدود العثمانية أبعد من ذلك إلى المحيط الأطلنطي من خلال جنوب غرب إفريقيا؛ فقد كلف السلطان مراد الثالث رمضان باشا والي الجزائر العام بفتح المغرب، وأصبحت المغرب تحت السيطرة العثمانية عندما قام رمضان باشا بتنصيب عبد الملك بن محمد سلطانا على المغرب عام ١٥٧٦. وبعد تعزيز الجيش العثماني بالقوات العسكرية المغربية، واجه الجيش العثماني نظيره الصليبي الذي شكله البرتغاليون بدعم من البابوية والفرنسيين والأسبان، فهزمهم العثمانيون هزيمة ساحقة عند مدينة القصر الكبير بالقرب من طنجة على مضيق جبل طارق عام ١٥٧٨. ومات سيباستيان ملك البرتغال في الحرب، وأصبح شمال إفريقيا بكامله تحت السيادة العثمانية.

في إيران الصفوية انتصر الشاه إسماعيل الثاني في التنافس على العرش الذي تلا موت الشاه طهماسب. وبعد جلوسه على العرش ألغى الشاه إسماعيل معاهدة أماسيا التي أُبرمت عام ١٥٥٥، وتعدى على الحدود

لوحة بفن المنمنمات تصوّر جنازة السلطانة الوالدة نوربانو أم السلطان مراد الثالث. ويظهر في الصورة نعش السلطانة الوالدة محمولا على الأكتاف لدفنها خارج البوابة الجنائزية للقصر.

العثمانية؛ فأرسل مرادٌ الثالث الجيشَ العثماني بقيادة "لالا مصطفى باشا" إلى الصفويين، وقاد الحملة بنفسه، وانتصر العثمانيون على الصفويين سُهوب جِلْدِير جنوبي شرق البحر الأسود في عام ١٥٧٨، ثم توغلوا في جورجيا وفتحوا تفليس أكبر مدن القوقاز. وشهدت السنة التالية معركة أخرى تغلب فيها الجيش العثماني على الجيش الصفوي مرة أخرى.

وفي عام ١٥٨٣ نشبت معركة ضد الصفويين سُمّيت "حرب المشاعل"[٢٢]، وأحرز الجيش العثماني نصرا عظيما بقيادة "عثمان أوزدمير أوغلو باشا" رغم ارتباك الجيش في البداية. ثم انتقل عثمان باشا بعد ذلك إلى كفَّه وعين "إسلام كيراي" خانا جديدا على القرم. وعندما عاد الباشا إلى إسطنبول قدَّم للسلطان مراد الثالث عرضا استمر لأربع ساعات حول تجربته. وكان السلطان يسمعه باندهاش أحيانا وابتهاج أحيانا أخرى، ومنحه هدايا سخية ودعا له. كما أصدر السلطان مراد الثالث أمرا بترقية عثمان أوزدمير أوغلو باشا إلى منصب الصدر الأعظم. وأُرسل الصدر الأعظم الجديد إلى فتح تبريز، واعترفت تبريز بالسيادة العثمانية بعد ذلك بقليل في عام ١٥٨٥، غير أنه تبين أن إدارة هذه المدينة ليست سهلة. ثم تُوفي عثمان أوزدمير أوغلو باشا بعد مرضه بشكل غير متوقع. وأغرقت أنباء موته مدينة إسطنبول في بحر من الحزن. لكن الجيش العثماني لم يتوقف، بل توجه إلى الأمام تحت لواء قائد جديد وهو فَرهاد باشا. وقد أدى تقدم القوات العثمانية الذي تزامن مع اضطرابات في الحكم الصفوي إلى توقيع معاهدة بين العثمانيين والصفويين نصت على دمج الأراضي المفتوحة حديثا في الأراضي العثمانية. غير أن الحروب استمرت على فترات متقطعة مع فارس الصفوية بين عامي ١٥٧٨ و١٥٩٠ عندما طلبت فارس الصفوية إبرام اتفاقية، فتم توقيع "معاهدة فرهاد باشا"، والمعروفة أيضا باسم "معاهدة إسطنبول"، في عام ١٥٩٠، والتي ضمنت ترسيم الحدود العثمانية في الشرق إلى أبعد الحدود التي يمكن الوصول إليها.

لكن الصعوبات المادية التي خلفتها الحروب الفارسية تسببت في جملة من المشكلات الأخرى. فقد أعقب تلك الحروب، على سبيل المثال، ثورة في صفوف قوات الانكشارية هدد مستقبل السلطان، وتم قمعها بشق الأنفس. وخلال الحروب المستمرة مع فارس استقبلت إسطنبول أنباء وفاة المعماري البارع سنان صاحب الصروح الأثرية الخالدة مثل مسجدي السليمانية والسليمية، وذلك عام ١٥٨٨.

السيف المبارك للرسول ﷺ، ويظهر المقبض والغمد وقد رُصّعا بقطع من الفيروز والياقوت في فترات لاحقة.

[٢٢] سميت للمعركة بهذا الاسم لأنها وقعت ليلا تحت أضواء المشاعل.

اتبع السلطان مراد الثالث خلال فترة حكمه سياسة "عدو عدوي صديقي"، وبخاصة عندما أعطى الأولوية للمحافظة على علاقات أوثق مع بريطانيا في الوقت الذي كان يحارب فيه أسبانيا والبرتغال. والأكثر من ذلك أنه سمح للتجار البريطانيين بممارسة التجارة الحرة في الطرق العثمانية البحرية عام ١٥٨٠. وأقام علاقات مع خان أوزبكستان في آسيا الوسطى، كما أن تمدد الخطر الروسي إلى داخل القوقاز وسيبريا أدى إلى علاقات أوثق بين البلدين. ورغم أن المبعوثين الأوزبكيين أخبروا السلطان بأن الاستيطان الروسي في أستراخان سيكون مصدر خطر كبير؛ لأنه يفتح آسيا الوسطى بكاملها أمام الروس، وعرضوا أيضا القيام بجهد مشترك لقمع ذلك الخطر، فإن السلطان رفض العرض بسبب الأحداث التي كانت تجري في الغرب.

في عام ١٥٦٨ تم تجديد معاهدة إسطنبول التي وقعتها الدولة العثمانية والنمسا عام ١٥٣٣، غير أن النمسا خرقت المعاهدة برفضها دفع الجزية المتفق عليها للعثمانيين، بل والأكثر من ذلك أن القوات النمساوية بدأت تهاجم الأراضي الحدودية العثمانية، كما أثارت أمراء ولاشيا وترانسيلفانيا ومولدافيا ضد الدولة العثمانية. كل تلك التحركات وضعت البلدين على شفا الحرب، ثم كان اغتيال "تَلّي حَسن باشا"، والي البوسنة العام، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. ورغم أن الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم كوجا سنان باشا كان مستمرا في إحراز الانتصارات في المعارك الأولى لتلك الحرب فإن الجيش أصابه الشلل لاحقا بثورات أمراء ولاشيا. ووسط الظروف المتدهورة جاءت أنباء وفاة السلطان مراد الثالث عام ١٥٩٥. ولا يوجد إجماع بين المصادر على سبب وفاته، ومن بين الأسباب المذكورة جملة من الأمراض مثل الزكام والنزيف المعوي والصرع والتهاب الأمعاء.

تروى المصادر أن مراد الثالث كرس وقته للأدب، وفن الخط، والفنون، وأنه اهتم بتاريخ العالم. وإضافة إلى ذلك، فقد كان طيبا وكريما للغاية مع أفراد عائلته. وكان أشقر الشعر، متوسط البنية، مرحا لطيف المعشر. وكان يمتنع عن إراقة الدماء ونادرا ما كان يقول "لا". وكان يحب ارتداء الملابس الفخمة المزينة بالحلي ووضع الجواهر القيمة على عمته. وكان فارسا موهوبا وراميا بارعا. وفي المقابل انتُقِد السلطان مراد الثالث بسبب إقحامه أشخاصا غير مؤهلين أو غير معنيين في شؤون الدولة، وبخاصة نساء القصر، وكذلك بسبب عدم خوضه الحملات بنفسه. ورغم أنه كان مقاتلا بطبعه فإنه كان محاطا بأشخاص ينصحونه بأن يدير شؤون الدولة من القصر ويقلل من الأسفار، فيبدو أنه لم يكن هو السبب، بل كان الأشخاص المحيطون به هم الذين حالو بينه وبين خوض الحملات بنفسه.

ومع ذلك دخلت الدولة العثمانية خلال عهده في حروب طويلة الأمد ومكلِفة ضد

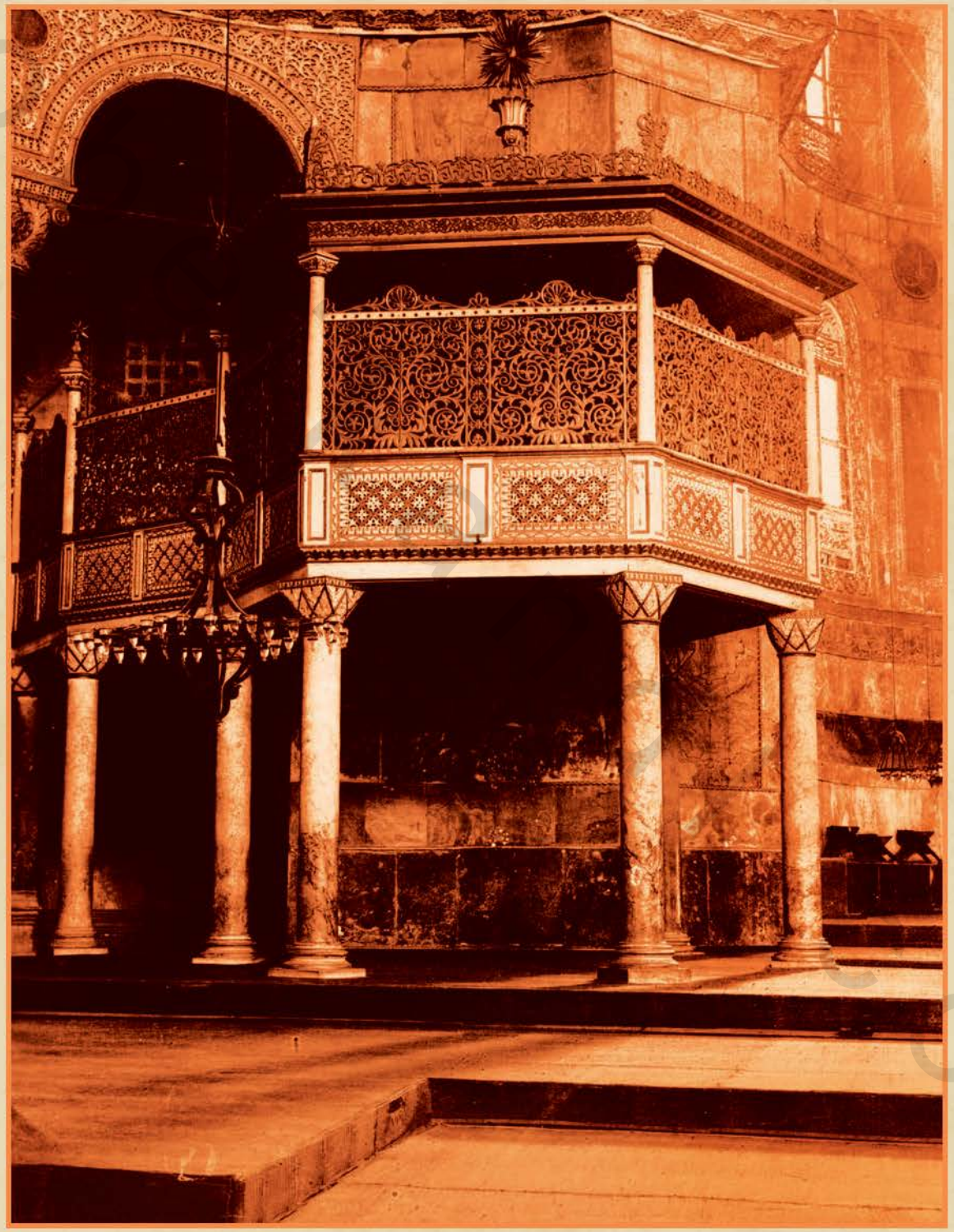

معرض السلطان، أيا صوفيا

فارس والنمسا، مما تسبب في سلسلة من التطورات السلبية مثل تدهور نظام الإقطاع (تيمار)، وإهمالِ عدد كبير من القرى، وارتفاعِ معدل الهجرة إلى إسطنبول، وزيادة عدد أفراد الجيشِ العاديين (كابيكولو)، وتجنيد أفراد غير مؤهلين، وعدم التمكن من دفع رواتب الجنود في مواعيدها. ومما زاد من تفاقم الأوضاع انتشار وباء الطاعون، وحدوث زلزال عنيف في إسطنبول.

كان السلطان مراد الثالث رجلا خيّرا، وقد قام خلال عهده بتجديد الكعبة والبيت الحرام بمكة. كما قام بترميم المسجد النبوي في المدينة وجميع المجاري المائية على طريق الحج، وأنشأ جامعة وملجأ ومدرسة وزاوية (مأوى صوفي) في كل من مكة والمدينة. وشيّد كذلك في مانيسا -وهي المدينة التي قضى فيها سنواته كولي للعهد- مسجدَ المرادية الذي رسم تصميمَه المعماري سنان. وكان مُجمّعا عظيما يتألف من مسجد وجامعة وخان وفندق. كما أنشأ أيضا مسجدين في المورة ونافارين (بيلوس الآن)، ومازال مسجد نافارين باقيا حتى اليوم. وفي إسطنبول أنشأ مراد الثالث حجرة العرش في قصر "طوب قابي"، وأضاف إلى مسجد آياصوفيا منارتين شماليتين ومنبرا أنيقا ومحفل (أي معرض السلطان) مصنوع من عريش جميل. واستمر في عهد السلطان مراد الثالث المشروع الإنشائي الذي بدأ في عهد والده في مكة المكرمة، وأعطيت عناية فائقة لسلامة الحجاج وحماية آثار الرسول ﷺ بمكة. وقد توارث "السيف المبارك" الذي استخدمه الرسول ﷺ في معركة أحد وأهداه لاحقا لعمر بن الخطاب، ثم وصل إلى الأمويين ثم العباسيين فالمماليك، حتى استقر أخيرا في إسطنبول وسُلم للسلطان مراد الثالث، ومازال هذا السيف يُعرض إلى اليوم بجناح الأمانات المقدسة في قصر "طوب قابي".

الرف الواسع للموقد والأريكة ذات المظلة في غرفة العزلة الخاصة بالسلطان مراد الثالث، وهما يظهران الذوق العثماني الرفيع في فن الديكور.